المنهجُ البيانيّ في تفسير القرآن الكريم، تفسير فاضل صالح السّامرائي نموذجا

يوسف ولد النبية[*]

جامعة معسكر، ouldennebia.youcef@univ-mascara.dz

الاستلام: 2019/09/14 القبول: 2020/08/09 النّشر: 20 /2020/10

الملخص:

تطرّقنا في هذه الورقة البحثية إلى الحديث عن المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم، متّخذين تفسير فاضل السامرائي نموذجا. وقد ارتكزت هذه الورقة على ثلاثة عناصر رئيسة؛ أولها: المنهج البياني في الدرس التفسيري؛ قراءة في المصطلح والمفهوم. وثانيها: المنهج البياني عند فاضل السامرائي؛ مفهومه وشروطه. وثالثها: منهجية فاضل السامرائي في كتابه "على طريق التفسير البياني". لنخلص إلى أنّ المنهج البياني يقوم على مبدإ أنّ القرآن الكريم سيّد على قواعد اللّغة لا العكس. كما خلصنا إلى أنّ السامرائي قد جعل اللّغة محتكَما رئيسا في التفسير البياني، دون أن يغفل شروط التفسير الأخرى المعتمَدة.

الكلمات المفاتيح:المنهج البياني؛ تفسير فاضل السّامرائي؛ شروط التفسير؛ الإعجاز البلاغي؛ الأسرار البيانية.

[*] **المؤلف المرسل**: يوسف ولد النبية، ouldennebia.youcef@univ-mascara.dz

Rhetorical approach in the Interpretation of The the Quran, the interpretation of Fadel Samurai as a model

Abstract: This paper is an attempt to explore the eloquent method in interpreting the Holy Quran, the interpretation of Fadhil al-Samarrai as a model. This paper is based on three main elements. First, the eloquent method in the interpretation lesson, it is a whole reading of the term and the concept. Second, the eloquent method in Fadhil al-Samarrai; its concept and conditions.Third, the methodology of Fadel al-Samarrai in his book "On the Way of Interpretation". Let us conclude that the the eloquent method is based on the principle that the Holy Qur'an is master of the grammar of the language, not vice versa. It also concluded that Samarrai had made the language dominant in the interpretation of the the eloquence, without ignoring the other conditions of interpretation adopted.

Key words: The Rhetorical approach;Explanation of Fadil al-Samarrai; Conditions of Interpretation;miraculous rhetorical; The Secret meaningsof the Quran.

مقدّمة: لقد عُني المسلمون قديما وحديثا -على اختلاف مرجعياتهم الفكرية والعَقَدية- بالقرآن الكريم دراسة وتفسيرا، كما عُنُوا به تلاوة وتحبيرا، بغية تدبّره وفهمه والعمل بهديه. فنشأت عندئذ مدارس تفسيرية مختلفة؛ بعضها تقيّد بالمأثور كتفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالسنّة، وتفسيره بأقوال الصحابة والتابعين، وسُمّي التفسير بالرواية، وبعضها الآخر جنح إلى العقل والفهم والاستنباط كالتفسير البلاغي، واللغوي، والكوني.. وسمّي التفسير بالدراية.

وقد ظهر في العصر الحديث ضرب من التفسير بالدراية اصطُلح عليه بالتفسير البياني، الذي يبحث في أسرار التركيب في التعبير القرآني، معتمدا في ذلك على السياق القرآني من جهة، ومستأنسا بالسياق الخارجي، كأسباب النزول، وعلوم العربية من جهة أخرى. وقد برز في هذا الضرب من التفسير ثلاثة أعلام؛ أولهم الشيخ أمين الخولي رائد مدرسة الأمناء، وثانيهم عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، وثالثهم فاضل صالح السامرائي.[1]

من هذا المنطلق، ساغ لنا أن نطرح في هذه الورقة البحثية[2] السّؤال الآتي: هل اختلف منهج مدرسة التفسير البيانيفي تناولهاللبيان القرآني عنمناهج المفسرين التراثيين ؟وللإجابة على هذا السؤال، ارتكزت هذه الورقة على ثلاثة عناصر رئيسة؛ أولها: المنهج البياني في الدرس التفسيري، قراءة في المصطلح والمفهوم. وثانيها: المنهج البياني عند فاضل السامرائي، مفهومه وشروطه. وثالثها: منهجية فاضل السامرائي في كتابه "على طريق التفسير البياني".

وقد زاوجنا في هذه الورقة بين المنهج التاريخي والمنهج الوصفي؛ أمّا الأول فقد ساعدنا في تتبع المسار التاريخي للتفسير البياني، وأما الثاني فقد أتاح لنا وصف ضوابط التفسير البياني وخصائصه عند أعلامه، لاسيما عند فاضل السامرائي.

العرض:

1- المنهج البياني في الدرس التفسيري، قراءة في المصطلح والمفهوم

يُقصد بالبيان الكشف عن المعنى، سواء كان ذلك باللفظ أو بغير اللفظ كالإشارة وغيرها.. والبيان عند الجاحظ (ت255هـ) "اسمٌ جامعٌ لكل شيء كشفَ لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضيَ السامع إلى حقيقته، ويهجمَ على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأنّ مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأيّ شيء بلغتَ الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع".[3]

ولا يختلف مفهوم البيان عند الجاحظ عمّا ذكره الراغب الأصفهاني (ت402هـ) في معجمه؛ إذ هو "الكشف عن الشيء، وهو أعمّ من النطق، مختصّ بالإنسان، ويُسمّى ما بُيِّن به بيانا.. وسُمّي الكلام بيانا لكشفه عن المعنى المقصود إظهارُه نحو "هذا بيانٌ للنَّاسِ" (آل

عمران:138) وسُمّي ما يُشرح به المجمَل والمبهَم من الكلام بيانا نحو قوله "ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه" (القيامة:19)".[4]

وقد تناول العلماء قديما البيان القرآني من منظور الإعجاز البلاغي، الذي ظلّ أهم جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم؛ "لأنه الواضح بالنسبة للعرب، ولأنه هو الذي شُدِه به العرب عند أول نزوله فحيّرهم، وهم المدركون لأساليبه، العارفون لمناهجه".[5]

ومن أهمّ الذين عُنُوا بالإعجاز البلاغي من القدماء الخطّابي (ت386هـ) في "بيان إعجاز القرآن"، الذي رأى أنّ في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه كثير من الناس، ألا وهو "صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس".[6] ومنهم أيضا الباقلاني (ت403هـ) في "إعجاز القرآن"، وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في "دلائل الإعجاز في علم المعاني"، الذي يعدّ فتحا جديدا في البلاغة العربية بعامة، والبلاغة القرآنية بخاصة، فـ"بلاغة القرآن الكريم الخارقة وقوة بيانه المثلى تتجلى في نظمه وفق قوانين النحو وخصائص العربية بطريقة مخصوصة يعجز البشر عن مجاراتها".[7]

بيْد أنّ دائرة الدرس الإعجازي البلاغي أخذت تضيق من بعد عبد القاهر، لتتسع للتقعيد البلاغي، بتقسيماته المنطقية، وتفريعاته الاصطلاحية، ووضع المتون والشروح، كما هو الحال عند السكاكي (ت626هـ) في "مفتاح العلوم"، والخطيب القزويني (ت739هـ) في "الإيضاح في علوم البلاغة".. فانقلب الدرس الإعجازي البلاغي -عندئذ- من عرض البلاغة على القرآن إلى عرض القرآن على البلاغة!

وفي العصر الحديث أخذ نفر من العلماء والدارسين يتوسّلون المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم، عساهم يتلمّسون بعض أسراره البيانية، ويقفون على بعض لُمَحه البلاغية.. يتقدمهم مصطفى صادق الرافعي (1880-1937م) في "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"،[8] والشيخ أمين الخولي (1895-1966م) في "مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب"، وسيد قطب (1906-1966م) في "التصوير الفني في القرآن" و"في ظلال القرآن"، وعائشة عبد الرحمن (1913-1998م) في "التفسير البياني للقرآن الكريم" و"الإعجاز البياني للقرآن"، وفاضل صالح السامرائي (و1933م) في أكثر من كتاب، ممّا سيأتي ذكره في العنصر اللاحق.

ويعدّ الشيخ أمين الخولي رائد المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم في العصر الحديث، ويقتضي التفسير البياني عنده ضرورة فهم سياقي القرآن الكريم؛ سياقِه الداخلي المتمثل في دراسة مفردات القرآن وتراكيبه، وذلك بالاستعانة بالعلوم اللغوية كالنحو والبلاغة.. وسياقِه الخارجي، المتضمّن معرفة البيئة العربية -المادية والمعنوية- التي فيها ظهر القرآن، والتي عنها تحدّث..[9]

وقد لخّصت عائشة عبد الرحمن ضوابط المنهج البياني عند أستاذها وزوجها الشيخ "أمين الخولي" في كتابه الجليل "مناهج تجديد" بقولها:

1-الأصل في المنهج، التناول الموضوعي لما يُراد فهمه من كتاب الإسلام. ويُبدأ بجمع كلّ ما في الكتاب المحكم من سور وآيات في الموضوع المدروس.

2-في فهم ما حول النص: تُرتّب الآيات فيه على حسب نزولها لمعرفة ظروف الزمان والمكان، كما يُستأنس بالمرويات في أسباب النزول من حيث هي قرائن لا بست نزول الآية دون أن يفوتنا ما تكون العبرة فيه بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت فيه الآية. وأنّ السبب فيها ليس بمعنى الحكمية أو العلّية التي لولاها ما نزلت الآية..

3-في فهم دلالات الألفاظ: نلتمس الدلالة اللغوية الأصيلة التي تعطينا حسّ العربية للمادة في مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية. ثم نخلص لِلُمَح الدلالة القرآنية باستقراء كل ما في القرآن من صيغ اللفظ، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة، وسياقها العام في القرآن كلّه.

4-في فهم أسرار التعبير: نحتكم إلى سياق النص في الكتاب المحكم ملتزمين بما يحتمله نصا وروحا. ونعرض عليه أقوال المفسرين فنقبل منها ما يقبله النصّ، ونتحاشى ما أُقحم على كتب التفسير من مدسوس الإسرائيليات وشوائب الأهواء المذهبية، وبدع التأويل.

كما نحتكم إلى الكتاب المبين في التوجيه الإعرابي والأسرار البيانية، نعرض عليه قواعد النحويين والبلاغيين ولا نعرضه عليها، ولا نأخذ فيه بتأويل لعلماء السلف على صريح نصه وسياقه، لتسوية قواعد الصنعة النحوية والبلاغية، إذ القرآن هو الذروة العليا في نقاء أصالته وإعجاز بيانه، وهو النص الموثّق الذي لم تشبه أدنى شائبة مما تعرضت له رواية نصوص الفصحى من تحريف أو وضع..[10]

ولعلّ بنت الشاطئ خيرُ من تلقّف فكرة أستاذها أمين الخولي، فقد جسّدتها في بحوثها ودراساتها المختلفة، أهمها كتاب "التفسير البياني للقرآن الكريم" في جزئين؛ الأوّل تضمّن (سورة الضّحى، والشّرح، والزّلزلة، والعاديات، والنّازعات، والبلد، والتّكاثر) والثاني تضمّن (سورة العلق، والقلم، والعصر، واللّيل، والفجر، والهُمَزة، والماعون)، وكتاب "الإعجاز البياني للقرآن، ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية" في جزئين أيضا؛ تناولت في جزئه الأول الإعجاز البياني بوجه عام، ودرست في جزئه الثاني نحو مائتي مسألة في كلمات قرآنية، سأل فيها نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- وطلب إليه في تفسير كلّ مسألة منها أن يأتي له بشاهد منها في كلام العرب.[11]

وقد نبّهت بنت الشاطئ الذين يلتمسون مقاصد بعينها من القرآن الكريم على مسألة تراها أساسية؛ وهي أنهم "لا يستطيعون أن يبلغوا من تلك المقاصد شيئا دون أن يفقهوا أسلوبه الفريد ويهتدوا إلى أسراره البيانية التي تُعين على إدراك دلالاته، فسواء أكان الدارس يريد أن يستخرج من القرآن أحكامه الفقهية، أو يستبين موقفه من القضايا الاجتماعية أو اللغوية أو البلاغية، أم كان يريد أن يفسر آيات الذكر الحكيم على النحو الذي ألفناه في كتب التفسير، فهو مطالب بأن يتهيّأ أولا لما يريد، ويُعدّ لمقصده عدّته: من فهم مفردات القرآن وأساليبه، فهما يقوم على الدرس المنهجي الاستقرائي ولمح أسراره في التعبير".[12]

ولا بأس أن نمثّل لتفسيرها البياني بسورة الزّلزلة بقولها: "الزلزلة في اللّغة، الحركة العنيفة والاضطراب الشديد: استعمل في الحسّيات، فقيل: زلزل الإبلَ ساقها بعنف حتى يضطرب سيرها. وتزلزلت الأرض، اهتزّت وارتجفت. ثم استعمل في الشدائد والأهوال...

وفي القرآن الكريم، وردت المادة، فعلا ومصدرا ستّ مرات: ثلاثا منها في وصف يوم الهول الأكبر، في آية الزلزلة، [الزلزلة:1].والحجّ:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجّ:1].

وثلاثا في وصف موقف الشدة القاسية والذعر البالغ في هول الحرب بآيات:

الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾.[الأحزاب:10-11].

البقرة:﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾.[البقرة:214].

وفي المرّات الثلاث التي استعمل فيها الفعل، جاء ماضيا مبنيا للمجهول. قال مفسّرون: إنّ الفاعل حذف للعلم به، غير ملتفتين إلى أنها ظاهرة أسلوبية مطردة في أحداث اليوم الآخر، وقد شغلتهم الصنعة البلاغية، عن الالتفات إلى ما في القرآن من أفعال لا تحصى، بُنيت للمعلوم مسنَدة إلى الله تعالى، مع العلم بالفاعل يقينا، فهو سبحانه خلق السماوات والأرضَ... مما يؤنس أنّ العلم بالفاعل ليس هو السرّ البياني في بناء "زُلزلت" للمجهول، وإنما هي كما قلنا آنفا، ظاهرة أسلوبية تطرد في مثل هذا الموقف، تركيزا للاهتمام في مثل هذا الحدث ذاته، وإيحاء بأنّ الأرض تزلزل عن طواعية، واستجابة لتسخير تلقائي.."[13].

ويتضح مما تقدّم، أنّ المنهج البياني إنما يقوم على استقراء اللفظ القرآني في مواضع وروده في المصحف الشريف، قصد الوصول إلى دلالته الخاصة. كما يقوم على عرض الظاهرة الأسلوبية المراد تفسيرها على نظائرها في القرآن الكريم، وتدبّر سياقها الخاص في الآية، وفي السورة، وفي القرآن كلّه، التماساً لسرّها البياني..ويتبيّن من هذا، أنّ المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم يجمع بين نوعين من التفسير: التفسير الموضوعي، وتفسير القرآن بالقرآن.

2- المنهج البياني عند فاضل السامرائي: مفهومه وشروطه

يعدّ فاضل صالح السامرائي من العلماء المعاصرين الذين اهتموا بالتفسير البياني للقرآن الكريم ردحا من الزمن، حيث بحث في اللّغة القرآنية في مستوياتها المختلفة؛ الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية.. وقد تجلى هذا في أعماله المختلفة ما بين مؤلفات ومقالات ومحاضرات.. ومن أهم كتبه التي يمكن أن تعطينا صورة واضحة عن المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم: "بلاغة الكلمة في التعبير القرآني"، و"لمسات بيانية في نصوص من التنزيل"، و"على طريق التفسير البياني" (في جزئين).

في البداية يقرّ السامرائي بأنّ "إعجاز القرآن أمر متعدد النواحي متشعب الاتجاهات، ومن المتعذر أن ينهض لبيان الإعجاز القرآني شخص واحد ولا حتى جماعة في زمن ما مهما كانت سَعة علمهم واطلاعهم وتعدد اختصاصاتهم إنما هم يستطيعون بيان شيء من أسرار القرآن في نواح متعددة حتى زمانهم هم، ويبقى القرآن مفتوحا للنظر، لمن يأتي بعدنا في

المستقبل ولما يجدّ من جديد. وسيجد فيه أجيال المستقبل من ملامح الإعجاز وإشاراته ما لم يخطر لنا على بال".[14]

وقد عرّف السامرائي التفسير البياني بقوله: "هو التفسير الذي يبيّن أسرار التركيب في التعبير القرآني. فهو جزء من التفسير العام تنصبّ فيه العناية على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية كالتقديم والتأخير والذكر والحذف واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير".[15] ويتضح من هذا أن التفسير البياني يبحث في لغة القرآن الكريم المُنْمازة عن لغة النصوص الوضعية، على الرغم من أنّ لغة القرآن الكريم جارية على السَنَن العربي..

وقد ذكر السامرائي أنه اعتمد في أحكامه واستنباطاته على القواعد المقرّرة والأصول الثابتة في اللغة دون أن يخرج عنها، نائيا بنفسه عن التعليل الذي لا يقوم على أساس من مسلمات اللغة وأحكامها.[16]

وعلى هذا الأساس، فإنّ السامرائي قد جعل لغة العرب المحتكَم الرئيس لكلّ من ينحو هذا المنحى التفسيري. ومردّ ذلك -في رأينا- إلى أنّ الذين شهِدوا التنزيل، أو من أتوا بعدهم بقليل، كانت صنعتهم الكلام؛ شعره ونثره، ولم تكن لهم صنعة محكمة غيرها، وبفضلها عرفوا أنّ كلام الله مفارق لكلامهم، على الرغم من أنه نزل بلسانهم، فأسلَم من أسلم، وأحجَم من أحجم..[17]ولا مندوحة لمن يريد أن يخوض غمار التفسير البياني عن معرفة لغة العرب وأساليبهم في الكلام.

على أنّ السامرائي قد نبّه في هذا المجال على أمرين أساسيين؛ أولهما ما يحتاج إليه المتصدّي للتفسير البياني، وثانيهما معرفة التشابه والاختلاف في التعبير القرآني، وسنفصل الحديث في هاتين المسألتين فيما يلي:

أ- ما يحتاج إليه المتصدّي للتفسير البياني

ذكر السامرائي أنّ ما يحتاج إليه المتصدّي للتفسير البياني هو ما يحتاجه المتصدي للتفسير العام، إلا أنّ به حاجة أكثر إلى الأمور الآتية:

1-التبحّر في علم اللغة (المعاني التي وضعت الألفاظ بإزائها).

2- التبحر في علم التصريف (الأبنية والصيغ).

3- التبحر في علم النحو (الإعراب والبناء).

4- التبحر في علوم البلاغة (المعاني، والبيان، والبديع).

5-العلم بالقراءات؛ فقد تكون القراءات مما يدل على كمال البلاغة وتمامها كقراءة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة:4) وقراءة ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فقد جُمع له -تعالى- بالقراءتين التملّك "مَالِك" والحُكم "مَلِك".

6-معرفة أسباب النزول، وهي من الدلائل المهمة على فهم المعنى، مثال ذلك أنّ عروة بن الزبير قد فهم من قوله تعالى "فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا" [البقرة:158] أنّ السعي ليس بركن. فردت عليه عائشة ذلك وقالت: لو كان كما قلت لقال "فلا جناح عليه ألا يطّوّف بهما". وثبت أنه إنما أتى بهذه الصيغة لأنه كان وقع فزع في قلوب طائفة من الناس كانوا يطوفون قبل ذلك بين الصفا والمروة للأصنام فلما جاء الإسلام كرهوا الفعل الذي كانوا يشركون به، فرفع الله ذلك الجناح من قلوبهم وأمرهم بالطواف.. (رواه البخاري، وذكره الزركشي في البرهان: 202/2).

7-النظر في السياق؛ إذ يُعدّ السياق من أهم القرائن الدالة على المعنى، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾

(الدخان:49) فسياقه يدلّ على أنه الذليل الحقير.

8-مراجعة المواطن القرآنية التي ورد فيها أمثال التعبير المراد تبيينُه.

9- مراجعة المواطن القرآنية التي وردت فيها المفردة المراد تفسيرها واستعمالاتها ومعانيها.

10-أن يعلم المفسّر بأنّ هناك خصوصياتٍ في الاستعمال القرآني؛ كاستعمال الرّيح للشرّ والرّياح للخير، والغيث للخير والمطر للشرّ، والصوم للصمت والصيام للعبادة..

11-أن ينظر في الوقف والابتداء، وأثر ذلك في الدلالة والتوسع في المعنى أو التقييد فيه.

12-أن يسترعي نظرَه أيُّ تغيير في المفردة والعبارة كالإبدال في المفردة نحو: يطّهّر ويتطهّر، والذكر والحذف نحو: تذّكّرون وتتذكّرون، وتغيير الصيغة نحو: مغفرة وغفران..

13-إدامة التأمل والتدبر، وهما من أهم ما يُفتح على الإنسان من أسرار..

14-الإطلاع على ما كتبه مشاهير المفسرين، وكتب علوم القرآن والإعجاز والمتشابه..

15-الموهبة التي هي أساس كلّ علم وفنّ وصنعة..[18]

ب- التشابه والاختلاف في التعبير القرآني

تناول العلماء قديما مسألة التشابه والاختلاف في التعبير القرآني، منهم الكرَماني (ت505ه) الذي بيّن هذه المسألة بقوله: "الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف، أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان".[19]

وعلى ذلك، فقد أولى السامرائي أيضا عناية بالغة لهذه المسألة في مجال التفسير البياني، ومما ذكره في هذا المجال أننا نجد أحيانا في القصة الواحدة أو المسألة الواحدة التي يذكرها القرآن الكريم، في أكثر من موضع، اختلافا في ذكر المواقف والعبارات. وتعليل ذلك أنه قد يُذكر جانب من القصة في موطن بحسب السياق الذي ترد فيه والغرض الذي يراد منها، ويُذكر جانب آخر في موطن آخر بحسب ما يراد من الغرض وموطن العبرة. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة البقرة (الآية:60): ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾

، وقوله في سورة الأعراف (الآية:160): ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

فإنه قال في البقرة "فانفجرت" وفي الأعراف "فانبجست"، فالانفجار بالماء الكثير، والانبجاس بالماء القليل، أكان ثمّة انفجار أم انبجاس؟

والجواب على ما يُذكر أنه أول ما انفجر الماء انفجر بالماء الغزير، ثم قلّ بعد ذلك بسبب عصيانهم فأخذ ينبجس، فذكر حالة في سياق التكريم، وأخرى في سياق الذم، وكلاهما واقع وصحيح، واختيار كل تعبير بحسب السياق الذي ورد فيه هو ما تقتضيه البلاغة. ثمّ إنّ

من المشاهد أنّ العيون والآبار لا تبقى على حالة واحدة؛ فقد يظهر الماء كثيرا ثم يقل بمرور الزمن، وقد يكون العكس، فلا غرابة أن يذكر كل حالة في مكانها اللائق بها.[20]

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله تعالى في سورة البقرة (الآية:58):﴿وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجّداً وَقُولُواْ حِطّةٌ نّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ"، وقوله في سورة الأعراف (الآية:161): "وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدا نَغفرْ لكم خَطِيئَاتِكُم﴾.

والخطايا جمع كثرة والخطيئات جمع قلّة فما حقيقة ما قال لهم ؟ والجواب أنه لا يناقض أحد القولين الآخر فإنه إذا غفر خطاياهم فقد غفر خطيئاتهم، فالقلّة داخلة في الكثرة.. هذا علما بأنّ جموع القلة والكثرة تتعاور في اللغة فإنه يصح في اللغة استعمال القلة للكثرة والكثرة للقلة".[21]

وبهذا، يتبيّن أنّ ثمّة ألفاظا قرآنية قد تبدو متشابهة في ظاهرها، لكنها مختلفة في دلالاتها، وذلك باختلاف السياقات التي ترد فيها تلك الألفاظ. وعليه؛ فإنّ المفسّر أو الدارس للبيان القرآني لا يقف على الاختلافات أو الفروق الدلالية بين الألفاظ المتشابهة إلا بإنعام النظر في السياق القرآني. وما من شك في أنّ السامرائي قد توخّى هذا السبيل في كتابه "على طريق التفسير البياني".

3- منهجية فاضل السامرائي في كتابه "على طريق التفسير البياني"

يعدّ كتاب "على طريق التفسير البياني" لفاضل صالح السامرائي من كتب التفسير المعاصرة التي توسّلت المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم، وقد قال صاحبه في مقدمته: "فهذا كتاب في سلسلة كتب التعبير القرآني التي كتبتُها آثرتُ أن أسمّيه (على طريق التفسير البياني) ولم أشأ أن أسميه (التفسير البياني) لأنه في الحقيقة ليس تفسيرا بيانيا للقرآن الكريم وإنما هو قد يكون خطوة أو خطى على طريق التفسير البياني أو نقطة فيه قد تكون نافعة لمن يريد أن يسلك هذه السبيل".[22]

ونستشف من هذا الكلام أنّ المفسّر مهما بلغ من علم، وأوتي من فهم، عليه أن يتواضع أمام كتاب الله، وقد كان دأبُ السامرائي في هذا الشأن دأب المفسرين الربانيين، الذين يتعاملون مع كلام الله بروح خاصة، غير الروح التي يتعاملون بها مع كلام البشر. وقد فسّر السامرائي في الجزء الأول من هذا الكتاب (المعوّذتين، والفلق، والناس، والإخلاص،

والكوثر، وقريش، والضّحى، واللّيل، والإنسان، والصفّ، والحديد)، وفسّر في الجزء الثاني منه سورتي (يس، ولقمان).

وقد اعتمد السامرائي في هذا التفسير على منهجية تضمّنت الشروط التي يحتاج إليها المتصدّي للتفسير البياني، وهي الشروط التي ألمحنا إليها آنفا، ويمكن تلخيص منهجيته في التفسير فيما يلي:

أ- اعتماده على المصادر الموثوقة:

اعتمد السامرائي في تفسيره على مصادر موثوقة قد تلقتها الأمة بالقبول، وهي على الجملة تمثّل أربعة أصناف؛ أولها يتمثل في التفاسير بقسميها؛ تفاسير الرّواية كتفسير ابن كثير (ت774هـ)، وتفاسير الدّراية كتفسير ابن عطية (ت542هـ)، وتفسير الرّازي (ت606هـ)، وتفسير الطاهر بن عاشور(ت1393هـ/1973م). وثانيها: يتألف من كتب علوم القرآن كالبرهان في علوم القرآن للزركشي (ت794هـ)، والاتقان في علوم القرآن للسيوطي (ت911هـ). وثالثها: يتكون من متون اللغة كالقاموس المحيط للفيروز بادي (ت817هـ)، وتاج العروس للزّبيدي (ت1205هـ). ورابعها: يضمّ كتب النحو كمغني اللّبيب لابن هشام (ت761هـ)، وشرح الأشموني (ت918هـ) على الألفية، وما إلى ذلك. ولا يخفى في أنّ هذه المصادر شكّلت الأرضية الأساس التي انطلق منها السامرائي، والتي على هديها بنى عليها آراءه التفسيرية.

ب- عرض الظاهرة الأسلوبية المراد تفسيرها على نظائرها في القرآن الكريم:

ذكرنا فيما سبق أنّ من خصائص المنهج البياني في التفسير عرض الظاهرة الأسلوبية المراد تفسيرها على نظائرها في القرآن الكريم، للخلوص إلى حكم عام يصدق على تلك الظاهرة الأسلوبية، وهو ما لم يغفله السامرائي، فمثلا في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قل أعوذُ بربِّ الفَلَقِ﴾، ذكر المواطن التي ذُكرت فيها الاستعاذة، كقوله تعالى في (المؤمنون:97): ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾، وقوله في (الأعراف:200): ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.. ومما قاله في هذا المناط: "وقد علّمنا ربُّنا أن نستعيذ به من عموم الشرور خفيّها وظاهرها".[23]

ج- اعتماده على السياق:

اعتمد السامرائي في فهم معاني ألفاظ القرآن وأساليبه على تدبّر السياقات التي ترد فيها تلك الألفاظ والأساليب، سواء تعلّق الأمر بسياق الآية، أو السورة، أو القرآن كلّه، كقوله في تفسير المعوذتين: "وقد تقول ولِمَ قال ههنا (أعوذُ) ولم يقل (إنّي أعوذُ) كما قال في مواطن أخرى؟ فقد قال في سورة (غافر:27) على لسان سيدنا موسى: ﴿إِنِّي عُذْت بِرَبِّي وَرَبّكُمْ مِنْ كُلّ مُتَكَبّرٍ لَا يُؤْمِن بِيَوْمِ الْحِسَاب﴾، وقال في سورة (الدخان:20) على لسان سيدنا موسى أيضا: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾، وقال على لسان سيدنا نوح (هود:47): ﴿قَالَ رَبّ إِنِّي أَعُوذ بِك أَنْ أَسْأَلك مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْم﴾... كلّ ذلك كان على التأكيد بـ(إنّ)، في حين... ما ورد في المعوّذتين فإنه لم يؤكد ذلك بـ(إنّ). وعلّة ذلك والله أعلم أنّ الاستعاذة تكون على قدر ما يحذره المستعيذ ويخافه فإذا كان المحذور شديدا والخوف متمكنا متسلّطا وكان يتهدّده هو على الخصوص أكّد الاستعاذة".[24]

د- التّخريجات النحوية:

لقد أولى السامرائي للنحو وما يتعلّق به من تخريجات وتقديرات عناية بالغة في تفسيره البياني، باعتباره عالما في النحو بالدرجة الأولى، من ذلك تفسيره لقوله تعالى في سورة الإنسان (الآية:12): ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾: "وقوله: (بما صبروا) يحتمل أن يكون معناه (بصبرهم) فتكون (ما) مصدرية. ويحتمل أن يكون (بالذي صبروا عليه) من الطاعات والإيثار والحاجة.

وحذف العائد ليشمل الاثنين أي بصبرهم وما صبروا عليه فيكون من التوسع في المعنى والله أعلم. ولا أذهب إلى وجوب تماثل حرفي الجر الداخلين على الموصول والعائد ليجوز حذف العائد المجرور بالحرف، وإنما يكفي تعيّن الحرف وعدم اللبس لورود ذلك في الفصيح قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ (الشورى:23) أي: به فقد حذف العائد مع حرف الجرّ ولم يدخل على الموصول مثله".[25]

خاتمة: لقد عرفنا من خلال ما تقدّم، أنّ قدماءنا المسلمين قد تناولوا مسائل من البيان القرآني داخل دائرة الإعجاز البلاغي، بيْد أنّ تناولهم ذاك -على جلال قدره- لم يكن بالمنهجية المتَّبعة في العصر الحديث عند الشيخ أمين الخولي، وعائشة عبد الرحمن، وفاضل صالح

السامرائي. كما عرفنا أيضا أنّ المنهج البياني عند هؤلاء المفسّرين إنما يقوم على مبدإ أنّ نصوص القرآن الكريم سيّدة على قواعد اللّغة لا العكس.

وقد تبيّن كيف أنّ السامرائي قد جعل اللغة العربية محتكَما رئيسا في التفسير البياني للقرآن الكريم، دون أن يغفل أهمية شروط التفسير الأخرى التي قرّرها العلماء، كمعرفة أسباب النزول، والعلم بالقراءات، وما إلى ذلك، مما كان يُصطلح عليه قديما بعلوم الآلة. وبهذا يكون السامرائي قد قدّم إضافات معتبرة في حقل التفسير البياني للقرآن الكريم، عسى أن تكون منارة هادية لمن يريد أن يتقفّى خطاه في هذا الميدان الشريف.

مصادر البحث ومراجعه:

*القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم

1- أحمد شامية: خصائص العربية والإعجاز القرآني، (في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م

2- أحمد مختار عمر: لغة القرآن، دراسة توثيقية فنية، مؤسسة الكويت، ط2، 1418هـ/1997م

3- الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، (د ت)

4- الخطابي: بيان إعجاز القرآن، تحقيق محمد أحمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3 (د ت)

5- الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، 1426هـ-1427هـ/2006م

6- الكرماني: البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب، بيروت، ط1، 1406هـ/1986م

7- أمين الخولي: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ط1، 1961م

8- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط14، 1413هـ /1993م

9- عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف، القاهرة، ط3، 2004م

10- عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، ط7 (د ت)

11- فاضل صالح السامرائي: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، شركة العاتك القاهرة، 2006م

12- فاضل صالح السامرائي: على طريق التفسير البياني، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 1423هـ/2002م

13- فاضل صالح السامرائي: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار، ط3، 1423هـ/2003م

14- عمر العبسو: الأديب الداعية فاضل السامرائي، رابطة أدباء الشام، الموقع: http://www.odabasham.net، تاريخ النشر: 2019/4/4، تاريخ الاطلاع: 2020/1/1

الهوامش والإحالات:

[1] وُلد الدكتور فاضل صالح السامرائي في سامرّاء في العراق سنة 1933م، وقد حاز درجة الماجستير من كلية الآداب في القسم اللغويّ في جامعة بغداد، ثمَّ التحقبجامعة عين شمس بمصر؛حيث نال فيها شهادة الدكتوراه سنة 1968م، ثمَّ رجع إلى العراق،وعُيّن في كلية الآداب في جامعة بغداد، ثمَّ أصبح عميدًا لكلية الدراسات الإسلامية المسائية في السبعينيات، ليصبح سنة 1983م خبيرًا في لجنة الأصول في المجمع العلمي العراقي، ثمّ عضوًا في المجمع العلمي العراقي سنة 1996م،وفي سنة1999م انتقل إلى جامعة الشارقة ليختص في تدريس علم النحو والتعبير القرآني إلى غاية 2004م، ثم عاد بعد ذلك إلى العراق. من أهم كتبه: ابن جنّي النّحوي، والدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري، ومعاني النحو (أربعة أجزاء)، والتعبير القرآني، ولمسات بيانية في نصوص من التنزيل، وعلى طريق التفسير البياني (جزآن).. يُنظر: عمر العبسو: الأديب الداعية فاضل السامرائي، رابطة أدباء الشام، الموقع: http://www.odabasham.net، تاريخ النشر: 2019/4/4، تاريخ الاطلاع: 2020/1/1

[2] أصلُ هذه الورقة البحثية مداخلة قدّمناها في الملتقى الدولي "معالم التجديد في حركة التفسير المعاصرة" يومي 28-2014/4/29 بجامعة أدرار، الجزائر

[3] البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، (ب ت) 76/1

[4] معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، 1426هـ-1427هـ/2006م، ص56

[5] أحمد مختار عمر: لغة القرآن، دراسة توثيقية فنية، ط2، مؤسسة الكويت، 1418هـ/1997م، ص195

[6] استدلّ الخطّابي على هذا الوجه من الإعجاز ببعض النماذج؛ منها قصة إسلام عمر -رضي الله عنه- الذي خرج يريد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويعمد لقتله، فسار إلى دار أخته وهي تقرأ سورة طه، فلمّا وقع في سمعه لم يلبث إلا أن آمن. ومنها أنّ الجنّ لما سمعت القرآن لم تتمالك أنْ قالت: "إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ" (الجنّ: 1-2). أنظر: بيان إعجاز القرآن، تحقيق محمد أحمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، ص70-71

[7] أحمد شامية: خصائص العربية والإعجاز القرآني، (في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م، ص148

[8] ذهب الرافعي إلى أن سر الإعجاز في القرآن الكريم هو في النظم، بجهاته الثلاث؛ الحروف وأصواتها، والكلمات وحروفها، والجمل وكلماتها. أنظر:إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 1423هـ/2003م، ص165 وما بعدها

[9]أنظر كتابه: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ط1، 1961م، ص307 وما بعدها

[10] التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، ط7، 10/1، 11

[11] أنظر: الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف، القاهرة، ط3، 2004، ص12

[12] التفسير البياني للقرآن الكريم، 15/1

[13]م،ن، 81/1، 82

[14] لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار، ط3، 1423هـ/2003م، ص5، 6

[15]على طريق التفسير البياني، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 1423هـ/2002م، 7/1

[16]م،ن، 5/1، وانظر كتابه: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، شركة العاتك القاهرة، 2006، ص8

[17]يذكر سيد قطب أنّ قصة إيمان عمر بن الخطاب، وقصة تولي الوليد بن المغيرة، نموذجان من قصص كثيرة للإيمان والتولي؛ فالأول قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرمَه! والثاني قال: إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنه ليحطّم ما تحته، وإنه ليعلو وما يُعلى. غير أنّ الأول شرحت التقوى صدرَه، والثاني صدّته الكبرياء عن الإذعان: "فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ" (المدّثّر:24). أنظر: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط14، 1413هـ/1993م، ص11 وما بعدها.

[18]على طريق التفسير البياني، 7/1 وما بعدها

[19] البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب، بيروت، ط1، 1406هـ/1986م، ص19، 20

[20] على طريق التفسير البياني 15/1 وما بعدها

[21]م،ن، 20/1

[22]م،ن، 5/1

[23]م،ن، 26/1

[24]م،ن، 26/1، 27

[25]م،ن، 175/1